نحو توحيد المناهج التعليمية في الجامعات العربية والافريقية.

عبد القادر بخوش

جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة

طبيعة العلاقات العربية الإفريقية

إن للموقع الجغرافي المتقارب وتفاعل الثقافات العربية الإفريقية وترابط المصالح ووحدة المصير كل هذا من شأنه أن يوجه الحوار ويحرك التعاون الجدي بين الجانبين لتنأى من خلاله وتدريجيا من قبضة الهيمنة الأمريكية. فما لا ريب فيه أن الهيمنة أو العولمة بالنسبة للمجتمعات الفقيرة ليست اختيار بل هو واقع يفرض نفسه تدريجيا.

والأمة العربية إذ تتأهب لدخول الألفية الثالثة فمن الطبيعي بمكان أن تسعى إلى فتح صور التلاقي مع أفريقيا وذلك لتأكيد حضورها دوليا وحضاريا.

إن العلاقات العربية الأفريقية ترجع إلى القرن العاشر قبل الميلاد، وبظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي ازدادت وشائح الاتصال العربي-الأفريقي، وتاريخ هذه العلاقة يؤكد بحق ما يمكن أن تكون عليه في الوقت الآمن لوضع سياسة استراتيجية تخدم مصالح العرب والأفارقة معا، ليس للحاضر فحسب وإنما للمستقبل أيضا، وذلك من أجل توحيد الجهود لمواجهة النظام العالمي الجديد.

فالمتفحص للخريطة الوطن العربي يجد أن ¾ مساحة الوطن العربي تقع في داخل قارة أفريقيا وأن نصف سكان القارة الأفريقية من المسلمين وأن اللغة العربية هي لغة الثقافة في العديد من الدول الأفريقية[1] ولقد أودعت أوروبا القرن التاسع عشر قدرها من ثلاث كلمات : العلم، التقدم، الحضارة.

فكانت هذه أفكار مقدسة سمحت لها أن ترسى داخل حدودها قواعد القرن العشرين وأن تبسط حدود سلطتها على العالم، ولم تنجح أي هرطقة ولم تتمكن أي حضارة من مواجهة هذه الأفكار [2].

وتبعا لما تقدم تكمن أهمية الجامعات باعتبارها المحضن التي تترعرع فيه الأفكار، وتنضج من أجل تكييف مشروع نهضوي جاد.

أزمة المناهج في الجامعات العربية

ومع أن الأمة العربية وأفريقيا خاطتا خطوات كبيرة نحو النهضة، وذلك إبان تخلص معظم الدول العربية والأفريقية من سيطرة الاستعمار، وما كلفها من تضحيات جسام، وقد ظن جمهور غفير من المواطنين بأن

Scanned by CamScanner

المعركة انتهت عند هذا الحد وأن المشروع تحقق، ولذلك اكتفت الأمة العربية وأفريقيا بترديد شعارات قومية، وغاب عن هؤلاء أن الأمة العربية وأفريقيا في حقيقة الأمر أنها لم تخرج من معركة السلاح إلا وقد فرضت عليها معركة أخرى بأساليب خفية تريد مسخ مقوماتها ولذلك تعد أخطر من سابقاتها، إنها مقاومة المناهج الفكرية والثقافية التي ترسبت إلى تراثها الفكري ومناهجها التدريسية.

وقد تجند للقيام بهذه المهمة نخبة من الباحثين الغربيين لدراسة ثقافتنا العربية الأفريقية والغرض من هذا كله هو تطويع المناهج العلمية وتحويرها لخدمة أغراض ومآرب شخصية، إن الأزمة العميقة التي تتخبط فيها الجامعات العربية والأفريقية تكمن في مناهج التعليم وطرق تقديم المعارف، إن كان الاستعمار قد خرج من الأراضي العربية والأفريقية صاغرا فإن مناهجه التعليمية تنخر في قيمنا الثقافية.

لقد اشتكى المنصرون الغربيون من اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر زاعمين أنه يطيق عليهم عملية التنصير والتغريب، جمعهم وقال لهم: "هل تتصورون أنني ممكن أن أقف في طريقكم؟ ولكنكم تستخدمون وسائل خاطئة فتخطفون الرجال والأطفال وتنصرونهم قصرا، فنشأ عن ذلك رد فعل عند العرب يزيدهم تمسكا بقيمهم وعروبتهم، ولكنني اتفقت مع شاب تخرج حديثا في كلية اللاهوت بلندن ليتولى وضع منهج تعليمي سيحقق لكم كل رغباتكم وكان هذا هو الأستاذ دان لوب الذي عينه كرومر مستشارا لوزارة المعرف المصرية فوضع مناهجه التي ما زالت سمومها تعمل في هذه اللحظة وكان من أشنع ما اشتملت عليه مناهج التاريخ العربي من مخزونه الشامل وحصره في التراعات السياسية والمذهبية، وحين ينتهي المنهج بالطلب عند هذه الصورة القاتمة يفتح له تاريخ أوروبا صفحة مشرقة حافلة بالنشاط الحضاري والتقدم العلمي".

وأن التاريخ الذي يستحق الحفاوة والإعجاب حقا هو تاريخ أوروبا، وهذا يدعو إلى التقليد الأوروبي وطرح كل مشروع عربي، أما في مجال اللغة العربية والتي تعد من أهم مقوماتنا الحضارية فقد وضعت مناهجها المدرسة الصهيونية الغربية تحت رعاية ووصاية الأوروبيين [3]، تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن : "في جيلنا كان المستشرقون اليهود يأخذون أماكنهم في قدس الجامعة المصرية أساتذة في كلية الآداب يعلموننا فقه اللغات السياسية وتتولى أكبر دور النشر المصرية إخراج دروسهم المطبوعة إلى مجال التأثير للعالم" [4]، وتذكر عائشة عبد الرحمن عندما كانت طالبة في الجامعة المصرية كيف وضعت بين أيديها محاضرات من مستشرق صهيوني اسمه اسرائيل ويلفنسون ألقاها على الطلاب الذين سبقوها إلى الجامعة ونشرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة في كتاب "تاريخ اللغات السامية" ليقرأها الطلاب الذين لم يسعدهم الحظ بالالتقاء والتلمذة على هذا المستشرق.[5]

Scanned by CamScanner

يتضح مما سبق أن هناك سيطرة شاملة على نظم تعليمنا من طرف الاستعمار، والذي يبث سمومه لتحقيق هدفه المنشود في تمزيق الوحدة العربية.

ومما يؤسف له بروز صيحات ترحيبية في الوطن العربي لتطبيق المناهج الغربية بحذافرها في جامعاتنا فنجد لويس عوض يلح على تشكيل لجنة أو لجانا على مستوى من الخبرة لدراسة مناهج التعليم في البلاد المتقدمة ومراجعة مناهجنا على غرارها بحيث نطمئن على أبنائنا وبناتنا يسيرون خطوة مع أبناء الأوروبيين وبناهم هذا هو الطريق الحقيقي للعصرنة، أما العلوم الاجتماعية في نظري لويس عوض فلنتبع فيها حذوهم كما وكيفا مع التركيز الخاص على جغرافيا بلادنا وتاريخها دون مبالغة في عبادة السلف.[6]

ويتهم لويس عوض تراثنا القديم بالسذاجة والتصور ومن ثمة ينبغي طرحه جانبا وينبغي علينا الارتماء في أحضان المناهج الغربية فهي طوق النجاة، فيقول: "فهل يحق لنا أن نأمل في بناء دولة عصرية إذا كان أبناؤنا يقتاتون على هذا الغذاء العقلي من سذاجات المعرفة وخزعبلات العقائد ؟ أليس أجدر بنا أن نسير في الطريق الذي تسير فيه الدول العصرية فنعيد صياغة مناهجنا وبرامجنا وقراراتنا على غرار ما يدور في المدارس الغربية"[7].

أزمة المناهج التعليمية في الجامعات الأفريقية

إن المتتبع للسياسة التعليمية الاستعمارية في أفريقيا يجدها لا تختلف كثيرا عن تلك السياسة المطبقة في العالم العربي وقد أفصح الفرنسيون بالكامل عن توجههم للتخطيط التعليم الاستعماريين أجل إخضاع أفريقيا، وقد أدرك الزعماء الغربيون منذ مرحلة الزحف الاستعماري إلى أفريقيا أنه مكان لا مفر من افتتاح بعض المدارس في أفريقيا وتطبيق المناهج الغربية التي تكرس التبعية وتأكد دونية أفريقيا[8].

وبعد أن أصبح مؤكدا بعد الحرب العالمية الثانية أنه لا يمكن الإبقاء على الحكم الاستعماري بأشكاله نفسها في أفريقيا إلى الأبد، وعندما تم إدراك أن نهاية الاستعمار توشك أن تكون عامة اندفعت القوى الاستعمارية إلى المؤسسات التعليمية بتطبيق مناهجها الغربية وغرضها هو مسخ وإذابة الشخصية الأفريقية المستقلة، وبذلك اعتقدت بأن النظام التعليمي يمكن أن يخدمها إذا ما تمت استعادة الاستقلال السياسي في أفريقيا، وأسطع مثال على ذلك فإن فونسون أحد المنظرين للاستعمار الفرنسي صرح قائلا: "أنه من الضروري ربط المستعمرات بالبلد الأم بواسطة رابطة نفسية شديدة الصلابة في مواجهة اليوم الذي ينتهي إليه سعيها للتحرر التقدمي إلى شكل من الاتحاد الفيدرالي حسبما هو محتمل حيث يصبحون ويظلون فرنسيين في اللغة والتفكير والروح"[9].

Scanned by CamScanner

وتبعا لما تقدم أقرر القول بأن مبدأ تكييف المناهج في جامعاتنا العربية والأفريقية لتخدم مشروعنا الوحدوي لا يعني كراهيتنا للثقافات الأجنبية ولا يتضمن قطع العلائق مع الثقافات الأخرى إنما يعني كما يقول ساطع الحصري توجيه ثقافة البلاد حسبما تقتضيه مصالح الأمة ونزعتها الخاصة لا حسب ما يطلبه أو ما يفرضه الأجنبي، ثم يؤكد الحصري على عدم إبقاء نظم التربية والتعليم في الأقطار العربية تحت سيطرة واحتكار نظام من النظم الغربية واستكمال الوسائل اللازمة لاختيار الأحسن مما عند كل أمة من الأمم الراقية إذ من المعلوم أن الدول الاستعمارية كثيرا ما تسعى إلى نشر ثقافتها في بعض البلاد بغية تدعيم نفوذها السياسي ولدينا شواهد تاريخية عديدة على النفوذ الثقافي كثيرا ما يكون مقدمة للنفوذ السياسي، كما أن السيطرة السياسية كثيرا ما تسعى لترسيخ أقدامها عن طريق تقوية السيطرة الثقافية[10].

وتبعا لذلك ينبغي إسقاط المناهج الذاتية الغربية والتي تطبق على ثقافتنا وتراثنا وبذلك يتم فضح كل النتائج المترتبة عليها.

فالمنهج الإسقاطي الذي يرتكز على استبدال الظاهرة المدروسة بظواهر أخرى هب إشكال الأبنية النظرية الموجودة في ذهن الباحث الغربي يراها في الواقع مخفيا بذلك الظاهرة الموضوعية التي أمامه والتي كان في نيته دراستها.

يتضح مما سبق أن الإسقاط خطأ في الإدراك يجعل الغربي في عزلة ذهنية ويضعه في موقف نرجسي خالص عندما لا يرى في العالم الخارجي إلا ما هو موجود في نفسه كصورة ذهنية، وإن كنا نوافق حسن الحنفي بالتماس العذر لتطبيق هذا المنهج لأنه في الغالب لا شعوري إذ أن الباحث ليس متحررا من الدوافع الأيديولوجية والبيئية للباحث، وخاصة أن أحدا لم يذكر طريقة لفصل الباحث عن ظروف الحياة وعن حقيقة ارتباطه واعيا وأنه لا واعيا بذاتيته الاعتقادية أو البيئية، وقد لا يتمكن الدارس من الانسلاخ بالكامل من آراءه المسبقة، ولكن الذي نعنيه هنا ونريد كشف النقاب عنه هو ذلك الإسقاط الذي لا يخفى على أحد وقد يكون بالتصريح وهو خضوع الباحث لهواه وعدم استطاعته التخلص من الانطباعات التي تركتها لديه بيئته الثقافية المعينة مع أن التحرر من الأحكام المسبقة العقلية والإنفعالية معا هو الشرط الأول للباحث العلمي، وسبب ذلك هو نرجسية الغربي بثقافته العنصرية واعتبارها النموذج الوحيد لكل الثقافات وأنه ينتسب إلى حضارة مركزية فهي محور التاريخ ومصدر الحقائق ومنبع المناهج ولذلك يؤكد حسن الحنفي أن ذلك يعود إلى التضخم في الذات الحضارية لدى المستشرق تجعله ينظر إلى الظواهر المدروسة من أعلى ولا يضعها على نفس المستوى مما يسهل الإسقاط، فالإسقاط هو وضع الآخر في قلب الذات[11].

Scanned by CamScanner

أما المنهج الذاتي ويطلق عليه أيضا اسم المنهج الفردي وهو لا يعترف بالتأثيرات الشمولية للتـاريخ ولا لإيحاءات الخصبة للبنية الاجتماعية الأنثروبولوجية ويلح أن نتاج الفرد وإبداعه وليد ذات المبدع، ولهذا هـذا المنهج إلى قراءة الحضارة الغربية على حدى وأنها لم تتأثر بأي حضارة أخرى، وذلك كله من أجـل سـحب البساط من أقدام الحضارة العربية وما أثرت به على الحضارة الغربية[12].

لقد مثل الفيلسوف الفرنسي رينان النموذج المحتذى لهذا الاتجاه وإذا ما أنفك يقرر تفرق الجنس الآلي في مجال الفكر والفلسفة على الجنس السامي [13].

وبالرغم من خطورة هذه المناهج المتحيزة إلا أنها تشغل حيزا كبيرا في برامجنا التعليمية، والأدهى من ذلك أن لهذه المناهج العنصرية من يروج لها في العالم العربي والأفريقي، وبذلك نخلص إلى أن المؤسسات الجامعات التعليمية القائمة سواءا في الوطن العربي أو في أفريقيا فإن مركز التقرير لا يزال يستند إلى تقرير المؤسسات الجامعية الأجنبية.

التوصيات والمقترحات

- ضرورة تصدي الجامعات العربية والأفريقية لدراسة المشاكل الراهنة التي تواجه الشعوب العربية والأفريقية ومعالجة الفجوة بين البحث العلمي والعملية الإنتاجية.
- التأكيد على ضرورة اهتمام الجامعات بالدراسات المستقبلية لرسم استراتيجية التعاون بين الطرفين والتخلص من ربقة الاستعمار الجديد.
- التصدي للمناهج الغربية العنصرية بدحضها وتصحيح الحقائق المقلوبة ثم التخلص منها نهائيا.
- محاولة توحيد المناهج التعليمية في الجامعات العربية والأفريقية لتتماشى مع الأوضاع الراهنة.

Scanned by CamScanner

المراجع

1. عامر المقري، التكامل الاقتصادي العربي الأفريقي (طرابلس، جامعة ناصر، سنة 2000م)، ص2.
2. مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو، ط1 (دمشق، دار الفكر سنة 1988م)، ص 105.
3. عائشة عبد الرحمن، الإسرائيليات في الغزو الفكري، ط1 (الرباط، معهد البحوث والدراسات العربية، سنة 1974م)، ص 65.
4. المرجع نفسه، ص 75.
5. المرجع نفسه، ص 76.
6. لويس عوض، ثقافتنا في مفترق الطرق، ط2 (بيروت، دار الآداب سنة 1983م)، ص 39.
7. المرجع نفسه، ص 77.
8. والتر رودنييه، أوروبا والتخلف في أفريقيا، ترجمة أحمد القصير، ط1 (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سنة 1988م)، ص 374.
9. المرجع نفسه، ص 379.
10. أبو خلدون ساطع الحصري، حول الوحدة الثقافية، (القاهرة، مركز دراسات الوحدة العربية، سنة 1988م)، ص 31، 32.
11. حسن حنفي، التراث والتجديد، ط1 (بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، سنة 1981م)، ص 76.
12. حسن جابر، الاستشراق والاتجاهات المنهجية المعاصرة (مجلة المنطلق، لبنان، العدد 12، صيف 1995م)،ص 91.
13. المرجع نفسه، ص 97.

Scanned by CamScanner